الريّس غادرنا

تناقل السوريون شائعة وفاة حنا مينه مرات كثيرة خلال السنوات الفائتة، الشائعة صارت حقيقة اليوم، ولربما كان رحيله رحيلًا مستمرًا من نوعٍ فريد؛ بدأ بوصيتهِ واستمر حتى والموت لا يفارق السوريين خلال سنواتهم السوداء الطويلة. لقد كنا نتساءل بين فترة وأخرى؛ هل توفي حنا؟! هكذا جعل الأديب من وفاتهِ حدثًا روائيًا مسهبًا ومرتابًا، لطالما نشد الكتّاب نهايات خاصة إلا أنّ الريّس صنعها.

نعى السوريون أحد أبرز رواد الرواية السورية، بعبارات شتى ومتسائلة تبعد صفة الموت عن كاتب عرف بؤس الحياة وفقرها قبل أن يبدأ الكتابة في سن متأخرة، ليجعل من أدبه صدى لعذابات وآمال. جميعنا قرأ وصيته التي نشرها بخط يدهِ قبل سنوات في جريدة الثورة السورية، وهالنا جميعًا، بدرجات متفاوتة أن يكتب حنا وصيته. إذ إنّ رواياته ذاخرة بشخصيات بطولية وشعبية، رافضة للموت، تصارع الأمواج والهزائم، تنظر نحو الحياة وكأنّها تريد كسر سطوتها، تلقينها درسًا، وتعليمها أسطورة العدالة والحرية والخلود. وهالنا أيضًا، المرارة والخيبة الكبيرتين اللتين أقر بهما في الوصية من الأهل والدولة والقراء. وأخيرًا فكرنا جميعًا: هل من المعقول أن يرحل حنا مينه دون أن ينتشر خبر وفاته مثل النار في الهشيم؟ كان ذلك التهيؤ ليبدو ضربًا من السريالية السورية وقد أوقعنا حنا ذاته فيها، عندما طلب في وصيته أن يُكتفى بأربعة عمال من مكتب دفن الموتى لكي يحملوا نعشه!

في رصيد حنا مينه قرابة الخمسين كتابًا توزعوا بين الرواية والقصة والمقالات، تحولت بعض رواياته إلى مسلسلات تلفزيونية أشهرها "نهاية رجل شجاع" و"المصابيح الزرق" إضافة إلى فيلم حمل اسم روايته "بقايا صور" أخرجه نبيل المالح وأدى البطولة فيه أديب قدورة. اختار اتحاد الكتاب العرب روايته "الشراع والعاصفة" من أهم مئة عمل روائي عربي، الرواية التي يشكل بطلها "الطروسي" نموذجًا مكررًا في عالمه الروائي، حيث دائمًا ثمة بطل محوري يمسك السرد ويشدّ الشخوص جميعها إليه. ارتبط اسم حنا مينه بالبحر، كتب عن عالم البحارة والصيادين وعمال المرفأ. لكننا نجده على نحو أكثر إشراقًا في رواية تحدث على تخوم البحر، وهي "الياطر" التي وعد قراءه بجزْء ثانٍ منها، ليحسم رحيله نهاية تلك الرواية البريّة والتي يصارع فيها "زكريا المرسلني" قدره مع الطبيعة بعد تخفيه عن الناس إثر جريمة ارتكبها في المرفأ، نغلق الرواية ورائحة السمك تنزّ من صفحاتها والجنس الوحشي يتعرى في الصفحات على نحو جنوني وآسر.

تدين مدينة اللاذقية لحنا مينه في كشف عوالمها في فترة الحرب العالمية الثانية وما يليها، ربما يدين حي القلعة وحارة الشحادين وحي السجن إلى ذلك الابن الذي أتى إليها من لواء الإسكندرون ليعمل حلاقًا في حي القلعة وعتالًا في المرفأ، قبل أن تنقذه معرفته بطريقة رسم الحروف من ذلك العمل الشاق، وتعتبر قصته المؤثرة جدًا "على الأكياس" من قصصه الذاتية التي تكشف متى وكيف بدأ الكتابة. يخبر حنا أهل اللاذقية الكثير عن مدينتهم ويُصدّر صورة عميقة للمدينة التي وسمتها سلطة البعث خلال عقود، عبر دراماها وسينماها، بصورة أمنية وطائفية نمطية يخيل أنّها صورة أزلية للمدينة المنسية، لولا أنّ الأديب يبرز تلك الشهادة الناصعة، الشهادة التي لا تركن سوى للأمانة التاريخية وللعهود التي تربط الأدب بالناس. يخبرنا حنا مثلًا؛ إنّ فرنسا عجزت عن جعل أهل اللاذقية يطلقون على شارع المغرب العربي اسم شارع فرنسا، الشارع الممتدّ اليوم من الجسر الذي يقود إلى الشيخضاهر، حتى بداية الكورنيش الغربي، طوال استعمار فرنسا لسورية، لم تستطع إقناع أهل المدينة أنّ يطلقوا على الشارع اسمها، وهو إلى اليوم يحمل الاسم الأصيل ذاته شارع "المغرب العربي".

يعتبر النقاد روايته "المصابيح الزرق" أولى الروايات السورية التي أسست أدب الواقعية، وهي روايته الأولى، كتب حنا مسودتها ثلاث مرات بحسب ما يروي عنه شوقي بغدادي. لقد عرف حنا الكتابة نزولًا إلى المستنقعات، ومن ثمّ انطلاقًا منها إلى عالم مكشوف على الشمس. فجاء أدبه حاملًا للكثير من قيم العدالة الاجتماعية والتحرر، لقد عرف الثورة بمضامين اجتماعية، على الرغم من حفاظه على تقاليد الكتابة الكلاسيكية تأثرًا منذ البدايات بمكسيم غوركي وناظم حكمت.

يروي عنه الشاعر السوري منذر مصري عندما زاره في الغرفة رقم 206 في الكازينو- نادي النقابات المهنية اليوم- حيث كان ينزل أثناء زياراته المتكررة إلى اللاذقية، يروي الشاعر عن الروائي؛ في بدايات المأساة السورية يسأله منذر: إلى أين يا حنا؟ ليجيب حنا: إلى الجحيم.. بقلب شجاع ومغامر ألمح السخرية والألم في عينيهِ، لقد غادرنا حنا مينه.

وصية حنا مينه

إلى قرائي الأعزاء!

أنا حنا بن سليم حنا مينه، والدتي مريانا ميخائيل زكور، من مواليد اللاذقية العام ١٩٢٤، أكتب وصيتي وأنا بكامل قواي العقلية، وقد عمرت طويلاً حتى صرت أخشى ألا أموت، بعد أن شبعت من الدنيا، مع يقيني أنه «لكل أجل كتاب».

لقد كنت سعيداً جداً في حياتي، فمنذ أبصرت عيناي النور، وأنا منذور للشقاء، وفي قلب الشقاء حاربت الشقاء، وانتصرت عليه، وهذه نعمة الله، ومكافأة السماء، وإني لمن الشاكرين.

عندما ألفظ النفس الأخير، آمل، وأشدد على هذه الكلمة، ألا يذاع خبر موتي في أية وسيلة إعلامية، مقروءة أو مسموعة أو مرئية، فقد كنت بسيطاً في حياتي، وأرغب أن أكون بسيطاً في مماتي، وليس لي أهل، لأن أهلي، جميعاً، لم يعرفوا من أنا في حياتي، وهذا أفضل، لذلك ليس من الإنصاف في شيء، أن يتحسروا علي عندما يعرفون، بعد مغادرة هذه الفانية.

كل ما فعلته في حياتي معروف، وهو أداء واجبي تجاه وطني وشعبي، وقد كرست كل كلماتي لأجل هدف واحد: نصرة الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض، وبعد أن ناضلت بجسدي في سبيل هذا الهدف، وبدأت الكتابة في الأربعين من عمري، شرعت قلمي لأجل الهدف ذاته، ولما أزل.

لا عتب ولا عتاب، ولست ذاكرهما، هنا، إلا للضرورة، فقد اعتمدت عمري كله، لا على الحظ، بل على الجهد، فيدي وحدها، وبمفردها صفقتا

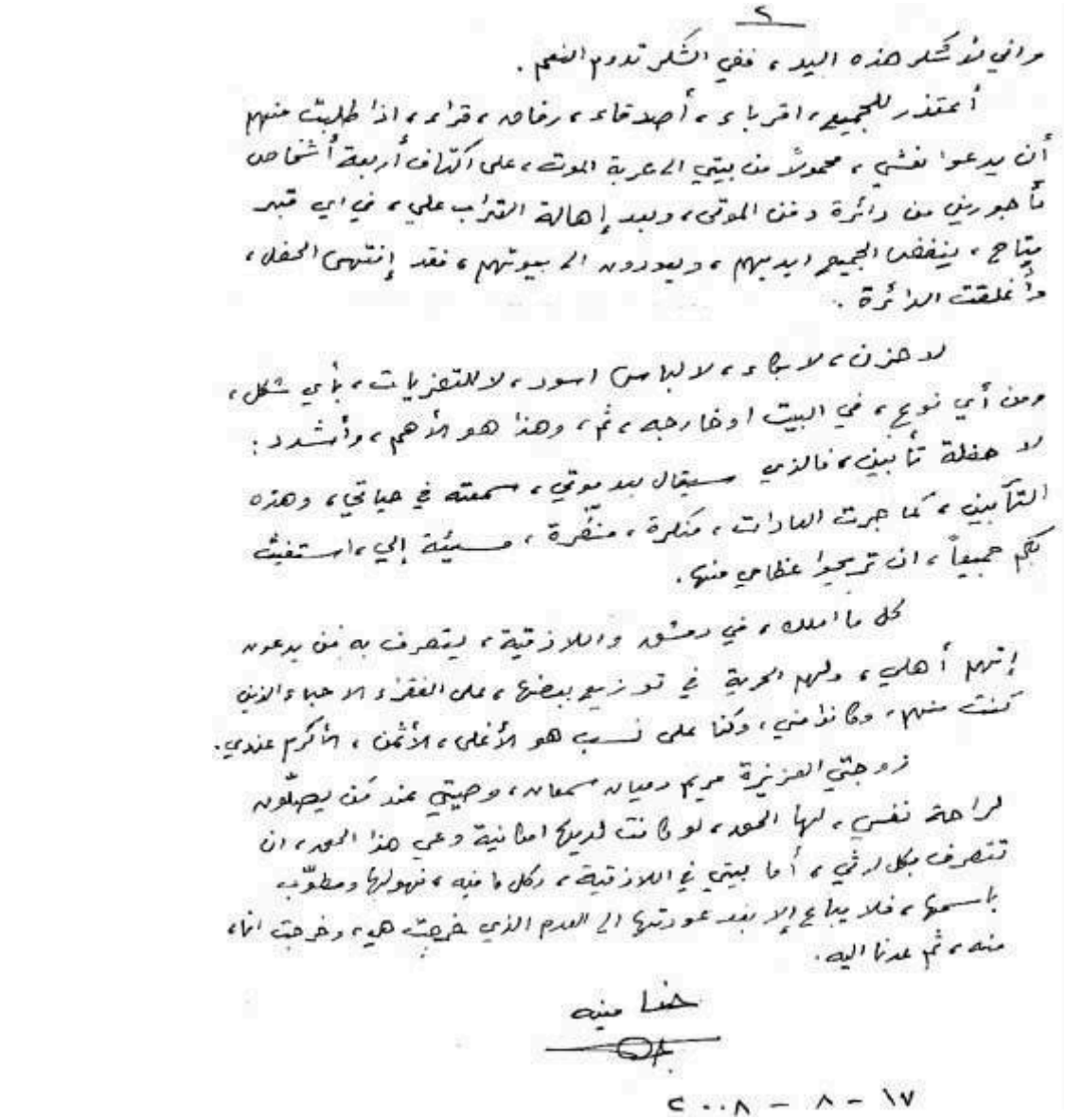

٢

وإني لأشكر هذه اليد، ففي الشكر تدوم النعم.

أعتذر للجميع، أقرباء، أصدقاء، رفاق، قرّاء، إذا طلبت منهم أن يدعوا نعشي، محمولاً من بيتي إلى عربة الموت، على أكتاف أربعة أشخاص مأجورين من دائرة دفن الموتى، وبعد إهالة التراب علي، في أي قبر متاح، ينفض الجميع أيديهم، ويعودون إلى بيوتهم، فقد انتهى الحفل، وأغلقت الدائرة.

لا حزن، لا بكاء، لا لباس أسود، لا للتعزيات، بأي شكل، ومن أي نوع، في البيت أو خارجه، ثم، وهذا هو الأهم، وأشدد: لا حفلة تأبين، فالذي سيقال بعد موتي، سمعته في حياتي، وهذه التأبين، كما جرت العادات، منكرة، منفرة، مسيئة إلي، أستغيث بكم جميعاً، أن تريحوا عظامي منها.

كل ما أملك، في دمشق واللاذقية، يتصرف به من يدعون إنهم أهلي، ولهم الحرية في توزيع بعضه، على الفقراء، الأحباء الذين كنت منهم، كما كانوا مني، وكنا على نسب هو الأغلى، الأثمن، الأكرم عندي.

زوجتي العزيزة مريم دميان سمعان، وصيتي عند من يصلّون لراحة نفسي، لها الحمد، لو كانت لديّ إمكانية دعم هذا الحمد، أن تتصرف بكل إرثي، أما بيتي في اللاذقية، وكل ما فيه، فهو لها ومطوّب باسمها، فلا يباع إلا بعد عودتها إلى العدم الذي خرجت هي، وخرجت أنا منه، ثم عدنا إليه.

حنا مينه

١٧ - ٨ - ٢٠٠٨

الكاتب: سومر شحادة